مجلة العلوم الإنسانية —— عدد 47 جوان2017،المجلد أ، ص. ص 279- 288 ——

صورة الإسلام والمسلم الآخر في الإعلام الغربي عوامل التشكيل وسبل التغيير

أسماء بوعنان
كلية علوم الإعـلام والاتصال والسمعي البصري
جامعة صالح بوبنيدر- قسنطينة- الجزائر

ملخص:
تزداد صورة الإسلام والمسلمين تشويها وتحريفا في وسائل الإعلام الغربية في عصر تزداد فيه القوة التأثيرية لوسائل الإعلام وقدرتها على تشكيل الصور النمطية عن الأفراد والشعوب، باعتبارها المصدر الأساسي لاستقاء وتلقي المعلومات وتشكيل الصور عن المجتمعات الأخرى، فقد انشغل الإعلام الغربي بتناول كل ما يتعلق بالعالم الإسلامي وقضاياه وما يتعلق بالمسلمين والربط بينهم وبين العديد من الصور النمطية السلبية، والتي وإن انتشرت اليوم عبر وسائل الإعلام، فهذا لا ينفي وجود جذورا لها ضاربة في التاريخ وإن اختلفت العوامل والأدوات والأساليب، فالتاريخ يحفل بالعديد من مصادر الصور النمطية السلبية للإسلام والمسلمين منذ المواجهات الأولى بين الإسلام والغرب ولكن توظيف الوسائل الإعلامية جعل الصورة أكثر انتشارا وسلبية ما بات يستدعي ضرورة العمل على دراسة وتشخيص هذه الصورة والعمل على بحث مختلف السبل والأدوات والاستراتيجيات من أجل التغيير والتصحيح.
الكلمات المفتاحية: صورة الإسلام ; المسلم الآخر ; الإعلام الغربي ; عوامل التشكيل ; سبل التغيير

Abstract:
In an era whereby the influential power of media and their ability to shape the individuals and societies' stereotypes are increasingly omnipotent, due to their important role as an essential source of supplying and receiving information and creating images about societies, the image of Islam and Muslims is being more and more deteriorated and twisted in the western media. The latter has closely concentrated on all what concerns the Islamic world and Muslims' issues and related them to different negative stereotypes which, widely spread over the media nowadays, are collocated to different negative concepts namely terrorism. Being as such, the current fact does not refute the historical genesis of the situation. Within different contexts and using different tools and strategies, history reports abundant sources of negative stereotypes of Islam and Muslims since the early confrontations between Islam and the west. Yet, the adoption of mass media has made the image even more negative and more spread, what comes to require the necessity of studying and diagnosing this image and exploring tools and strategies to correct it.

مقدّمة:

تشكل الصور والرسائل الإعلامية قوة ثقافية واجتماعية وسياسية قادرة على إحداث تغيير هام في المجتمع وعلى خلق مواقف وقيم ورؤى جديدة، لما لها من أثر طاغ على الجمهور، ومن ناحية أخرى تقوم وسائل الإعلام بترسيخ وتأييد القيم والعادات والتقاليد والأنظمة وخاصة المرتبطة بالتصور، ويلج الإعلام على مستوى العالم بطريقة

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر2017

واسعة إلى التنميط فهو يقوم بدور الرمز الذي يقدم للجمهور المتلقي مفهوما ما، أو مفتاحا سريعا ومشتركا لشخص أو مجموعة من الأشخاص، وهذا الأمر ينطبق بصورة خاصة على الإعلام المرئي، سواء كان على هيئة مشهد درامي، أو برنامج تليفزيوني، أو صورة في جريدة، أو كاريكاتير...غير أن قولبة البشر في قوالب محددة سلفا تتضمن عدد من الإشكاليات ذات الأثر البعيد في تشكيل وعي وإدراك الناس، فالتنميط يختصر الفروق المتنوعة الموجودة بين الناس إلى تبسيط مخل قد يصل إلى حبس فئات معينة في شكل أو شكلان دون الانتباه إلى الكم الهائل من التفاوتات الإنسانية(9).

فالناس طوال العصور كانت تقوم بتشكيل صور نمطية للشعوب والجماعات الأخرى وكانت هذه الصور تستخدم لإثارة الكراهية ولتعبئة الشعوب للحرب لكن في عصور سابقة و قبل ظهور وسائل الإعلام الحديثة، كانت الخبرة الشخصية والاتصال المباشر يمكن أن يقوما بدور مهم في عملية ثبات الصور النمطية أو تغييرها، ولذلك كانت الصور النمطية يمكن أن تكون أكثر مرونة حيث إن الخبرات الشخصية للإنسان يمكن أن تثبت عدم صحة هذه الصور فتنهار كما حصل للصليبيين عندما ثبت لهم عدم صحة الصور التي حملوها عن المسلمين... لكن منذ القرن الثامن عشر تزايدت أهمية الصحافة، ثم الوسائل الإعلامية الأخرى كمصدر للمعرفة حتى أصبحت في العصر الحديث المصدر الرئيس الذي يحصل من خلاله الناس على المعلومات وبالتالي فقد ضاق المجال أمام نتائج الخبرة الشخصية وتزايدت إمكانية ثبات الصور النمطية وتزايدت أهمية الدور الذي تلعبه هذه الصور في تشكيل اتجاهات الناس(8).

وكما بات جليا فإن صورة العالم الإسلامي تتعرض في كل يوم لكثير من التشويه والتحريف والتضليل في أغلب وسائل الإعلام الغربية، التي تروج صوراً نمطية عن الإسلام والمسلمين وتثير الشك والريبة والخوف وتخلق أسباب النفور من كل ما له صلة بالدين الإسلامي، من هنا يجد المسلمين أنفسهم أمام هالة من الصور الذهنية والنمطية التي تفننت ترسانة الإعلام الغربي من خلالها في تقديم الإسلام في أبشع الصور الممكنة. وأمام هذه الصورة السوداوية القاتمة والمضللة، تمحورت الإشكالية المطروحة حول البحث في طبيعة الصورة التي يسوقها الإعلام الغربي عن الآخر المسلم وعن الإسلام وسنعالج هذه الإشكالية من خلال التطرق إلى العناصر التالية:

- العودة إلى أهم العوامل والأسباب التي أسهمت في رسم وتشويه صورة الإسلام في الغرب.
- أهم مراحل تشويه وتنميط صورة الإسلام والمسلمين في الغرب.
- دور الإعلام الغربي في تسويق الصور النمطية الزائفة عن الإسلام والمسلمين وكيفية وسبل الرد من أجل تقديم الصورة الحقيقية عن الإسلام وتصحيح الصور المشوهة عنه.

أولا: الأسباب والعوامل

إن الصورة النمطية للإسلام في الإعلام الغربي وتسويق الخوف المرضي منه رغم ارتباطه في الوقت الحاضر بمجموعة من الأحداث المنسوبة لبعض الأشخاص والتنظيمات المحسوبة على الإسلام إلا أنها تشكلت نتيجة لتراكم العديد من الأسباب والعوامل المتشابكة والمتداخلة مع بعضها البعض والتي يمكن إجمالها في:

1 - العامل التاريخي والحضاري:

فطبيعة العلاقة التاريخية المثقلة بالعداء والحروب والكراهية بين المسلمين والغرب جعلت هذا الأخير محط هجوم واستهداف دائم، فالإسلام كان دائما ذلك الآخر أي المرآة التي يرى فيها الغرب نفسه ويسقط على الإسلام تقسيماته وتعدديته ويجعل منه الآخر لكل وجه من وجوهه فالإسلام آخر على مستوى الديانة، وآخر على مستوى البلدان والشعوب، وآخر على مستوى الحضارة، وهكذا يتحدد الإسلام في مرجعية الغرب لا بما هو في نفسه بل بما هو آخر للغرب وبعبارة أخرى فالتقابل الذي يقيمه الغرب بينه وبين الإسلام هو من نوع التقابل الذي به تتحدى العلاقة بين الأنا والآخر التقابل الذي يعبر عن الغيرية والضدية(13).

2 - العامل المعرفي:

ويتبلور أساسا في المشكلة المعرفية عن الإسلام الناتجة عن جهل الغرب بكثير من حقائق الإسلام وافتقارهم للمعلومات والمعرفة الحق عن الإسلام والمسلمين، وقد تداخل مع هذا الجهل ونقص معرفة الأوربيين عن هذا الدين العوامل الميثولوجية واللاهوتية والعقلانية، ويكفي أن نراجع ما يكتب في اللاهوت عن الإسلام على أنه دين يؤمن بالقدرة الوحيدة الكلية والشاملة بحيث لا يستطيع العقل المسلم أن يفهم مبدأ السببية. ويتم تعميق الثقة لدى كل غربي بأن المسلمين قوم لا يؤمنون بالعقل. وطبعا هذا كلام لا يتفق مع حقيقة الإسلام، لكن مفكري الغرب لا يريدون أن يفهموا ذلك ربما لأننا نحن المقصرين في عرض ذلك(5).

وبغض النظر عمن يتحمل المسؤولية فقد أسهم اللاهوت والفلسفة الدينية في تشكيل صور ذهنية موغلة في الازدراء والكراهية للإسلام، ويمكن القول بأن أدب أوربا الوسطى حول الإسلام وضع في غالبيته من طرف رجال الدين المسيحي الذين استندوا إلى مصادر شديدة التمايز، كالحكاية الشعبية وقصص الأبطال والحجاج والقديسين والمؤلفات اللاهوتية ذات الطابع الجدلي وتزعم ذلك فلاسفة مشهورون أمثال: توماس الإكويني 1225-1274 ومارتن لوتر 1483- 1546 ودانتي 1295 – 1321، فهذا الأخير على سبيل المثال قد عبر عن كامل حقده وبغضه للرسول عليه الصلاة والسلام من خلال الكوميديا الإلهية، التي غدت معلما من معالم ثقافة أوربا منذ عصر النهضة وحتى هذه اللحظات وغدت نصا يدرسه الطلاب في المدارس والجامعات... إن الصورة الشعبية والدينية التي رسمها اللاهوتيون المسيحيون في القرون الوسطى عن الإسلام ونبيه عليه السلام هي الصورة التي لم تتغير منذ قرون عديدة وإن عدلت وفق صور وقوالب أخرى في فكر التنوير الغربي(3).

3- العامل الاستشراقي:

فقد كان للمستشرقين ودراساتهم دورا حاسما في تشويه صورة الشرق لدى الغرب ولعل من أبرز الأسباب التي تأصلت في الروح الاستشراقية وجعلتها لا تتوانى عن إنتاج الصور النمطية عن الإسلام ما يلي:

- اعتبار الإسلام دينا منافسا للتراث اليهودي والمسيحي ولذلك يتم نفيه ورفض مشروعيته.
- نجاح الإسلام في الانتشار انطلاقا من مبدأ العالمية، ونجاحه في ضم مناطق جغرافية كانت تدين إلى عهد قريب للنصرانية فالإسلام في نظر المستشرقين منافس دينيا وسياسيا .
- إن الإسلام كمصدر لهذا الخطر الديني والسياسي المستمر لا يمكن مقاومته إلا من خلال تشويه صورته..قصد الحيلولة دون الإقبال على هذا الدين.
- استشراء روح الخوف الاستشراقي من الإسلام كدين وحضارة مما لا يساعد على تقديم وصف موضوعي للإسلام وفهم صحيح له ولذلك يتم الاستسلام لإنتاج الأحكام الخاطئة والمواقف المتحيزة.
- التغير الحاصل في الدراسات الاستشراقية المعاصرة حيث يتم في الغالب إهمال الاستشراق التقليدي المهتم بالعلوم الإسلامية من عقيدة وعلوم القرآن والحديث والفقه وأصوله... إلى اهتمام معاصر بما يسمى الواقع الحالي للعالم الإسلامي حيث تم تحويل الدراسات الإستشراقية المعاصرة إلى دراسات إقليمية أو قطرية ترصد وتسجل أوضاع الأقاليم والأقطار الإسلامية المعاصرة على مختلف المستويات السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية وتوظيف النتائج والمعلومات لخدمة الأهداف والمصالح السياسية من جهة والإعلامية من جهة أخرى.. هذا إلى جانب دور مراكز البحوث والدراسات الاستراتيجية وما تنتجه من مؤلفات وبحوث لمنظرين قد يكونوا مختصين فقط في الإنتاج الفكري المعادي للإسلام(3).

-4 الحركة الاستدمارية للغرب على العالم الإسلامي:

والتي قوبلت بالرفض والمقاومة المسلحة المشروعة للدفاع عن الأرض في حين يصورها الغرب محاربة للحضارة والمدنية في محاولة للاستمرار في تكريس نزعة الاستعلاء والمركزية لدى الغرب، ونظرته الشوفينية القديمة والمتجددة للآخر من جهة، وتكريس عقدة النقص والدونية واحتقار الذات عند

المسلمين من جهة أخرى فمعظم الغربيين يؤمنون بأنهم من أعراق وأجناس أكثر رفعة ورقيا من المسلمين مما يزيد في تأجيج مظاهر العنصرية لدى الغرب، والتطرف لدى بعض الفئات من المسلمين التي لا تجد إلا في العنف ردا على الغرب ومن ثم يتم استغلال ردود الأفعال مع إغفال الدوافع والأسباب والخلفيات التي أدت إليها(3).

كما لا نغفل دور العامل البشري والامتداد الجغرافي للدين الإسلامي فالإسلام هو احد أكثر الديانات انتشارا في العالم من الناحية الجغرافية ويأتي في المرتبة الثانية بعد المسيحية من حيث عدد أتباعه، وهو الدين السائد في قارتين هما آسيا وإفريقيا وهو أيضا الدين الرئيس لشعوب الشرق الأوسط، ومعظم الجزء الجنوبي للاتحاد السوفيتي سابقا وأكبر البلدان الإسلامية من حيث عدد السكان هي اندونيسيا وباكستان وبنغلادش ولكن هناك أيضا تجمعات إسلامية هامة وكبيرة في أوربا و في القارتين الأمريكيتين الشمالية والجنوبية والصين(12).

وتدل المؤشرات الإحصائية على زيادة أعداد المسلمين في مختلف دول العالم ولا سيما دول الغرب الرأسمالي... حتى أصبحوا قوة يحسب حسابها في الكثير من هذه الدول وقد لفتت هذه المسالة الأنظمة السياسية والفكرية في العالم واختلفت في توجهاتها، فمنها من عمل على كسب ود المسلمين والتعاطف معهم ومنحهم الحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم والدفاع عن قضاياهم ومعالجة مشاكلهم ومن هذه القوى من يسعى لاحتواء المسلمين أو تشتيتهم خشية أن يتحولوا إلى قوة تؤثر على مسار الحياة السياسية والاقتصادية في هذه الدول وراحت تشن عليهم الحملات المضادة التي تشككك في عقيدتهم(14).

وإذ كانت العوامل سابقة الذكر مرتبطة أساسا بما يأتي من الخارج فهذا لا يعني عدم وجود العديد من العوامل الداخلية النابعة من داخل الأمة الإسلامية ومن المنتسبين للدين الإسلامي والذين أساءوا له من الداخل ربما بصورة أكبر حتى من الإساءة المسوقة من الخارج، فوسائل الإعلام الغربية تعتمد في كثير من الأحيان على أحداث حقيقية لا يمكن إنكارها وهذه الوسائل تبالغ بالتأكيد في تضخيم هذه الأحداث. وعلينا أن نعترف أن جزء كبيرا من المسؤولية في تشويه صورة المسلمين يقع عليهم هم أنفسهم فالأمة بشكل عام تعيش حالة هزيمة مروعة وتخلف شديد ولم تستطع لحد الآن أن تستثمر ما بيدها من عناصر القوة والأخطر من ذلك أن كثيرا من النخب تعيش حالة انبهار مرضي بالغرب(7).

إلى جانب افتقار الجالية العربية والإسلامية في الغرب لقيادات ذات كفاءة عالية وضعف دورها في تقديم الصورة المثلى للإسلام بل على العكس من ذلك بعض من أفراد هذه الجاليات يسيء لسمعة الإسلام بسبب سلوكياتهم المنافية للقانون أو للأخلاق وقيم المجتمعات التي يتواجدون فيها، وحسب الكاتب الأمريكي بول فندلي رغم أن عدد المسلمين في أمريكا يأتي في المرتبة الثانية بالنسبة لبقية الأديان وهم في الواقع أكثر عددا من اليهود الأمريكيين إلا أنهم لا يأتون بحركة ليسوا نشطاء من الناحية السياسية... ولسوء الحظ تراهم لا يرغبون حتى بالتعبير عن رأيهم أو الدفاع عن صورة دينهم الحقيقية التي حاول الكثيرون تشويهها ففي أمريكا يربطون بين الدين الإسلامي الحنيف والإرهاب... فهم عندما يسمعون كلمة مسلم أو كلمة إسلام فإنهم وعلى الفور يتصورون تلك المفاهيم السيئة(15).

مراحل تشويه صورة الإسلام والمسلم الآخر لدى الغرب

يمكن تقسيم أهم مراحل تشويه صورة الإسلام في الغرب أساسا إلى ما قبل وما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، لكن هناك من يعود بالدراسة والبحث في هذه المسألة إلى بدايات الدعوة الإسلامية وبالعودة إلى أهم المحطات في تاريخ المواجهة بين الغرب والمسلمين ويلخص الكاتب حسن عزوزي أهم هذه المحطات فيما يلي:

مرحلة الخطاب القرسطوي:

استمد فيها الغرب صورته الذهنية عن الإسلام والمسلمين من خلال المواجهة الفعلية بين الإسلام والنصرانية خلال القرون الوسطى وإلى نهاية الحروب الصليبية، وتعتبر هذه الفترة التي درسها بشيء من التفصيل نورمان دانييل في كتابه-الإسلام والغرب- مشحونة بالتصورات والأوصاف السلبية التي تم

نسجها في حق الإسلام والمسلمين حيث اعتبر الدين الجديد هرطقة وسوطا من سياط العقاب الإلهي. وتم تصوير المسلمين وثنيين يعبدون ثالوثا مكون من: ابولين، تيرفاجونت ومحمد، والإسلام حسبهم دين جنس وملذات في إشارة إلى تعدد الزوجات(3)، واعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم غير قادر على أن يكون نبيا حقيقيا أو أن يأتي بعقيدة صحيحة، وبالتالي فانه لا يمكن الا ان يكون شخصا مرتدا أو نبيا مزيفا لا يملك سوى الادعاءات والأضاليل بل إن الخيال المسيحي جعل منه ساحرا ومعاديا للمسيح عليه السلام، ويجسد صورة الشيطان كذلك. وخلاصة القول أن الوعي أو بالأحرى المتخيل المسيحي في الزمن الوسيط بلور صورة عن الإسلام: إنه عقيدة ابتدعها محمد وهي تتسم بالكذب والتشويه المتعمد للحقائق، إنها دين الجبر والانحلال الخلقي والتساهل مع الملذات والشهوات الحسية، إنها ديانة العنف والقسوة(13).

مرحلة خطاب عصر الأنوار:

بالرغم من فضل عصر الأنوار في إخراج الغرب من قبضة الكنيسة وتحجرها إلا أنه لم يستطع التخلص منها نهائيا، وبقدر ما كان خطاب هذا العصر بحق الإسلام والمسلمين خطابا لاهوتيا كان أيضا خطابا توفيقيا يطبعه التردد والتذبذب بين المدح والإعجاب من جهة والذم والسخرية من جهة أخرى، حتى إنه أصبح من غير الممكن الحكم على أي كان من فلاسفة عصر النهضة والأنوار بأنه متعاطف مع الإسلام كلية أو أنه متعصب ضده تعصبا تاما، وبقدر ما يتم الاستشهاد بواحد منهم بأنه مدح الإسلام وأشاد به يتم الاستشهاد به مرة أخرى كواحد ممن أساء إلى الإسلام ووصفه بأقبح الأوصاف[1].

مرحلة الاستدمار والخطاب الاستشراقي:

وفي هذا السياق يمكن التأكيد أيضا على أن واقع الاستدمار الغربي للدول الإسلامية كان منبعا أصيلا لكثير من الصور الزائفة التي صنعها الغرب وهي الصور النمطية التي عادت لتزكي وتبرر في المخيلة الغربية نزعة الاستعمار والاستعلاء، ومرحلة الغزو الاستدماري للمنطقة الإسلامية قد تميز خلالها التحدي الغربي عن الحقبة الصليبية بالغزو الفكري الاستشراقي المصاحب لاحتلال الأرض، وذلك بصناعة الصور الغربية للإسلام وحضارته تلك الصورة التي نمت مكوناتها لتبرر للغرب نفي الآخر الإسلامي من جهة... ولكي تخيف شعوبها من الإسلام فتجرها إلى التضحية في معاركها الفكرية والقتالية ضد العالم الإسلامي من جهة أخرى.

وتبقى الصورة التي صيغت عن الشرق والإسلام سواء من طرف المستشرقين القدامى أو المحدثين هي صورة مشوهة قائمة على تعميمات خاطئة وتشويهات متعمدة وافتراءات باطلة... فكل من اقتحم ميدان الاستشراق من الغربيين وأراد أن يتخصص فيه يصبح مقيدا بذلكم الجهاز الهائل من الأحكام المسبقة، وعلى الرغم من أن الاستشراق الحديث والمعاصر قد شهد ظهور وتطور اتجاه علمي موضوعي في دراسة الأديان والحضارات الأخرى، نجد المستشرقين لا يتأثرون كثيرا بهذا الاتجاه في تناولهم الإسلام وحياة المسلمين وهناك استمرار في تمرير وتكريس الصور النمطية القديمة عن الإسلام والإصرار على التبرير لها بدراسات وأبحاث قد تبدو علمية في ظاهرها لكنها غير موضوعية(11).

دور الإعلام الغربي في تشكيل الصورة

بعد الحقبة الاستدمارية التقليدية واستقلال معظم الدول العربية والإسلامية وتوظيف الولايات المتحدة وحلفائها للإسلاميين في حربها ضد الاتحاد السوفيتي أصبح التركيز على تشويه صورة العربي، دون الإشارة للبعد الديني في شخصيته لتعود بعد تحقيق هدفها بسقوط الاتحاد السوفيتي لتجنيد ترسانتها الإعلامية لمحاربة الإسلام العدو الجديد ومصدر الخطر القادم من الشرق إلى الغرب، وبدايات الظهور الإسلامي في الإعلام الغربي كان مركبا أساسيا في البناء المفاهيمي للصورة النمطية للإسلام في أجهزة الإعلام البريطانية حيث تم تصوير المسلمين وكأنهم يمثلون كل ما هو معاكس للغرب, وبالفعل فإن بعض الكتابات الغربية وحتى الإسلامية في بعض الأحيان أدت إلى التركيز المطلق على أبنية مفاهيمية وقيم ثقافية لكل من الجانبين حينما تبنت النسق الغربي على أنه الإطار المفاهيمي الوحيد الذي يمكن من خلاله فهم الوجود الإسلامي والإخبار عنه إذا أضحى الإعلام الغربي هو المصدر الإعلامي لفهم الإسلام(4).

ومما لم يعد فيه شك فالإسلام والمسلمون قد أسيء فهمهما وأسيء ذكرهما من قبل الإعلام الغربي... وتشير الكاتبة الألمانية شيميل إلى أنه وبرغم تشويه صورة الإسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم في أوربا وفي القرون الوسطى بشكل كبير، من الضروري أن نميز أو نتعرف على دور وسائل الإعلام في زيادة الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين في الغرب، بسبب قدرة الإعلام على تعزيز النماذج النمطية التي كانت مهمة بالفعل وذات مغزى في تعزيز الصورة السلبية عن الإسلام والمسلمين في أذهان الغربيين (12).

وهذا لا يعني التخلي عن الاستمرار في توظيف المناهج التعليمية ومراكز البحوث والدراسات الاستراتيجية ومختلف الأدوات الرسمية وغير الرسمية، لكن أسند الدور الرئيس في التشويه لوسائل الاتصال الجماهيري واسعة وسريعة الانتشار والتأثير، وقد لا نبالغ في القول إن تسويق صور نمطية أقل ما يقال عنها إنها جد مضللة وسلبية عن المسلم الآخر بكل ما تحويه مكونات هذه الآخرية [2]، بات من أولى أولويات أدوات الإعلام الغربي.

حيث تقوم وسائل الإعلام باستخدام الصور النمطية الموجودة في الثقافة القومية والموروثة من فترات تاريخية سابقة مع تطوير هذه الصور بشكل مستمر وإضافة سمات جديدة إليها أو تدعيمها وأيضا تقوم بتشكيل صور نمطية جديدة، طبقا لأهداف الجماعات المسيطرة ثقافيا واقتصاديا وسياسيا... وقد أوكلت هذه المهمة للصحافيين منذ نهاية القرن الثامن عشر.. وركز خطاب القرن التاسع عشر والعشرين على إثارة الاحتقار بالنسبة لشعوب إفريقيا وآسيا بشكل عام وللمسلمين بشكل خاص وبعد الصحف جاء عصر السينما لتستغل بشكل أساسي في تقديم صورة نمطية عن المسلمين وتثبيت هذه الصورة في أذهان الغربيين(7)، ويدأب الإعلام الغربي على الخلط بين الإسلام وبعض التصرفات الخاطئة لبعض المسلمين وإمعانا في التشويه تسعى الميديا الغربية إلى إلصاق الرذائل بالإسلام والمسلمين وتصور المسلم على انه سفاك في كل الأوقات، وحسب الكاتب الأميركي بول فندلي في بلادنا عندما نفكر في الإسلام نستحضر على الفور الصورة المرئية التي تبثها وسائل الإعلام. والغريب أن معظم ما تبثه وسائل إعلامنا عن الإسلام هو معلومات خاطئة تماما وبعيدة كل البعد عن الإسلام الحقيقي(6)، ومن النادر جدا أن يشير الإعلام الغربي إلى كيفية قيام الإسلام بخلق حضارة مثيرة للإعجاب في أجزاء مختلفة من العالم ولأكثر من ألف عام وكانت الثقافة الإسلامية في أوجها أهم من ثقافة أوربا الغربية وكانت مساهماتها العديدة حيوية بالنسبة إلى عصر النهضة الأوربي(2).

وليس من شك في أن وسائل الإعلام الغربية تتعمد الإساءة للإسلام وأهله والدليل على ذلك هو تركيزها على فكرة الخوف من الإسلام وإلقاء الرعب في قلوب الأوربيين من كل ما هو إسلامي، ولعل نظرة سريعة على بعض العناوين التي نشرتها الصحف الأوربية في فترة سابقة تؤكد هذه الحقيقة من هذه العناوين: المسلمون قادمون- الجهاد يتجه نحونا- الوجه القبيح للإسلام- الإسلام يهدد الغرب- انتبهوا الإرهاب الإسلامي فرقة انتحارية عالمية - الحرب المقدسة تتجه نحونا...الخ. ومن المقالات التي كان لها تأثير سلبي على صورة المسلمين ما كتبته صحيفة التايمز في 1995 عن أن المتعصبين المسلمين سعداء مبتهجون عندما يقومون بالقتل لأنهم يؤمنون بأنهم ذاهبون إلى مكان بعيد أفضل يقصد به الجنة(6).

وساهمت السينما الغربية وخاصة في الولايات المتحدة وعلى رأسها هوليود الأمريكية عبر أكثر من قرن من الزمان، في تجسيد الأحقاد والكراهية الغربية للعرب والمسلمين بما تبثه من أفلام تحوي الكثير من الأكاذيب والزيف، وجاء هذا التجسيد في صورة تغطية سلبية شيطانية للعرب والمسلمين، ورسخت ذلك في ذهن الغربي المهيأ لاستقبال كل ما من شأنه أن يقلل من قيمة العرب والمسلمين وتشويه صورتهم، فقد تم تصوير العربي والمسلم كمخلوق متخلف، فقير معدوم، يرتدي ملابس رثة لم يلحق بركب الحضارة شهواني متفلت جنسيا ولا تحكم علاقته بالنساء ضوابط أو قيود... إضافة إلى إلصاق صفات الجبن والجهل والإرهاب، به وصورت المرأة العربية والمسلمة كراقصة تمتهن الدعارة ومتخلفة لا تملك من أمرها شيء كما تم السخرية من الثراء الموجود في بعض الدول العربية وتصوير شيوخ العرب يقودون سيارات فارهة يستعملونها للمباهاة و ارتكاب الأعمال الخسيسة(10).

ومع أن تصوير بعض الدراسات للنهج الذي اتبعته السينما الغربية بأنه يهدف لتحقيق أرباح تجارية والبحث عن عناصر التشويق والتسلية، فهو تصوير لا يمكن قبوله أو التسليم به ذلك أن الصورة النمطية التي تشكلها السينما الغربية وتروجها تؤثر بشكل كبير على عملية صنع القرار في الدوائر السياسية والاقتصادية والثقافية، فهذه الصورة النمطية أصبحت جزء من الثقافة الأمريكية والأوروبية وبالنسبة لمعظم الأمريكيين، والأمر نفسه ينطبق على الأوربيين فان فرع الجهاز الثقافي الذي ينقل لهم الإسلام يتضمن بقسمه الأعظم شبكات التلفزة والإذاعة والصحف اليومية وشبكات الأخبار ذات التوزيع الكثيف... وقد جاء اختراع التلفزيون ليكرس بشكل أكبر وأعمق تثبيت الصورة النمطية للإسلام و المسلمين المروج لها من قبل الصحافة والسينما ولم يستثنى من هذا الدور الكتب المدرسية و البرامج التعليمية(7).

إن صورة العرب والمسلمين في التلفزيونات الغربية لا تختلف عن صورتهم في السينما فهم مضاربون يسخرون ثرواتهم لشراء العقارات في أمريكا، ويتسببون في ارتفاع الأسعار وانخفاض مستوى المعيشة هناك وهم غير متحضرين وبرابرة وتجار للرقيق الأبيض وهم أثرياء، جمعوا ثرواتهم من بيع النفط..اضافة إلى تصويرهم كأعداء للمسيحيين... ولا يتم إظهار صورتهم إلا بلباسهم التقليدي وملتحين ويحملون في معهم في بعض الأحيان الخناجر(10). وقد قدمت كثير من القنوات التلفزيونية صورة قبيحة غير واقعية للعرب عن طريق إظهارهم كأثرياء مبذرين ومسرفين ومبددين ثرواتهم على نزواتهم وشهواتهم(7). ولم تسلم المسلسلات والرسوم الكرتونية من تسخيرها من أجل تشويه صورة العرب وفي إطار صورة سلبية مهينة من شانها أن تغرس في أذهان الاطفال الغربيين وتشكل الاساس الذي يبني عليه كامل الصورة السلبية للعرب المسلمين في المراحل التالية من العمر.

سبل الرد والتصحيح

تلعب الصورة الذهنية المقدمة عن الإسلام في الخارج دورا حيويا في تقديم هذا الدين إلى الجماهير غير المسلمة في العالم وصورة الإسلام يحكمها كم ونوع المعلومات المتاحة عن هذا الدين للناس في مختلف الأزمنة والأمكنة، وتسهم روافد المعرفة وأجهزة الاتصال المختلفة في تقديم هذه المعلومات بمختلف الصور والقوالب هنا وهناك، وبقدر نشاط الأجهزة ومهارتها في عرض الحقائق عن هذا الدين بقدر فاعليتها في تعريف الجماهير به وتصحيح ما قد يعترى تفكيرها من أخطاء حصدتها من الشائعات وحملات الدعاية التي تستهدف تشويه صورة الإسلام والمسلمين وإذا كانت وسائل الاتصال الحديثة يسهل عليها تصحيح الآراء والمفاهيم أو تعديل الاتجاهات نحو العديد من المسائل والأمور، فانه يشق العمل عليها في مجال العقيدة ذلك أن هذا المجال يتطلب وضع إستراتيجية علمية منظمة يتم فيها توظيف مختلف الوسائل والأدوات القادرة على الاستمالة والإقناع ولن يتأتى ذلك كله إلا عن طريق وسائل الإعلام ومضمون إعلامي قوي وفعال(14).

كما ان تشويه الصورة العربية والإسلامية في الغرب رافقه ويرافقه عاهات وشوائب كثيرة قائمة في الجسمين العربي والإسلامي ولذلك فإن تصحيح الذات العربية والذات الإسلامية يجب أن تكون له الأولوية قبل الحديث عن مسؤولية الغرب... ومن المؤكد أن الغرب لا يعجب إلا بالنجاح والقوة مهما بدت مخيفة له لا يستطيع احتقارها، ومن هنا فانه من المؤكد أن الطريق الصحيح لمقاومة تحيز الغرب ووسائل إعلامه ضد الأمة الإسلامية وتصحيح الصورة النمطية والسلبية، هو إقامة مشروع حضاري جديد تستعيد فيه الأمة عافيتها ووحدتها وقدرتها على تحقيق النهضة والتقدم وفي إطار هذا المشروع يتم إقامة صناعة إسلامية قوية للإعلام والمعلومات تواجه الصورة المشوهة داخل الأمة قبل أن تواجهها في الخارج(7).

هذا إلى جانب ضرورة العمل على ما يلي:

- تضافر الجهود من خلال المؤسسات الأكاديمية الإعلامية والهيئات المختصة بالشؤون الإعلامية في العالم الإسلامي لوضع إستراتيجية إعلامية متكاملة طويلة المدى لتصحيح الصورة المشوهة عن العرب والمسلمين وقضاياهم العادلة.

- تشجيع المبادرات الذاتية للأفراد المؤهلين من المهنيين وأساتذة الإعلام الذين يتعاملون مع تكنولوجيا العصر وفي مقدمتها شبكة المعلومات الدولية الإنترنت من أجل توظيف مهاراتهم لإبراز الصورة الصحيحة للعرب والمسلمين وتفنيد الأكاذيب التي دأبت أجهزة الدعاية الصهيونية علي ترويجها بصفة دائمة.

- ضرورة إنشاء جهاز إعلامي إسلامي للبحوث يتولى رصد وتحليل واقع ما يقدم عن الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية وإعداد الدراسات العلمية والحقائق التي يعتمد عليها في الرد علي ما يقدم من صور مشوهة أو إساءة تتعلق بالمسلمين وثقافتهم ودينهم.

- ضرورة إنشاء جهاز إسلامي للإنتاج الإعلامي يتولى إنتاج برامج وأفلام وتقارير إخبارية...الخ. تتناول الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين ونقلها للشعوب الأخرى من خلال القنوات الفضائية وشبكة الإنترنت وبلغات الشعوب الغربية.

- لاستفادة من تكنولوجيا الاتصال الحديثة في مجال الفضائيات والإنترنت بإنشاء قنوات إسلامية موجهة بلغات الدول الغربية وكذلك مواقع إسلامية علي شبكة الإنترنت لشرح الإسلام ومبادئه للشعوب الغربية.

- إنشاء صندوق إسلامي للإنفاق علي تحسين صورة الإسلام يتم تمويله من خلال دعم الحكومات في الدول الإسلامية وجمع التبرعات من المؤسسات والشخصيات الإسلامية.

- مشروع "التعريف بالرسول صلى الله عليه وسلم" وهذا وحده كفيل بتغيير نظرة الغرب عن الإسلام إذا ما تم على أكمل وجه وأفضل صورة لأن أكبر تشويه تتعرض له صورة الإسلام يبدأ ويتمحور وينتهي عند شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وأكثر الشبهات حول شخصه، ربما أكثر بكثير من الشبهات حول الحدود والشريعة والعقيدة والمنهج حتى إن بعض المضللين درجوا على تسمية الدين الإسلامي بالدين المحمدي واعتماد الطريقة العلمية والإحصائية في الإعلام الإسلامي والبعد ما أمكن عن الأسلوب الخطابي الأجوف والحماسة الفاشلة والانفعالية الآنية و التأكيد على مباني العقل.

- مخاطبة العالم إعلاميا وذلك وفق القيم الإنسانية العامة والحقوق المشتركة والمفاهيم المتفق عليها والابتعاد عن مواقع الحساسية والتنافر اعتماد أسلوب التبشير ونبذ المهاترات الإعلامية والتشهير بالقوى المعادية (1).

خاتمة

من خلال ما سبق يمكن أن نستنتج أن:

- إن صورة الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي لم تكن وليدة ما يكيله الإعلام الغربي في الوقت الحاضر بل كانت نتيجة لتراكم العديد من العوامل الداخلية والخارجية التي شكلت هذه الصورة على مر العصور.

- وكما يتحمل الغرب جزء من المسؤولية في تشويه صورة الإسلام يتحمل المسلمون مسؤولية أكبر في تشويه صورة دينهم و تكريس الصورة المكونة عنهم.

- أسهمت وسائل الإعلام الغربية من خلال تغطيها المتحيزة وغير الموضوعية لقضايا الإسلام والمسلمين في تعزيز ثنائية الضدية بين الأنا الغربي والآخر المسلم، وتعزيز ما ترسخ في الذهن الغربي عن هذا الدين وأتباعه.

- لازال العامل الحضاري حاضرا بقوة كواحد من اهم العوامل المحددة لصورة المسلم الآخر في الإعلام الغربي

- يشكل موضوع النبي عليه الصلاة والسلام، الجهاد والإرهاب والخوف من الإسلام وقضايا المرأة موضوعات مشتركة في خطابات الغرب حول الإسلام والمسلمين من الخطاب القروسطوي حتى الخطاب الإعلامي.

- إذا كانت معركة الصورة اليوم قائمة على المستوى الإعلامي فهذا لا ينفي ضرورة العودة إلى البحث المتعمق في جذور الصورة النمطية عن الإسلام لدى الغرب وتوظيف نتائجها من أجل التصحيح عبر وسائل الإعلام من جهة وكل الأدوات والروافد والآليات المتاحة لذلك من جهة أخرى.

المراجع

1. الإسلام والغرب في مواجهة الحملة الإعلامية الغربية ضد الإسلام والمسلمين، ط2، منشورات القيادة الشعبية الإسلامية العالمية الجماهيرية الليبية 2000.
2. جو كينشلو شيرلي شتاينبرغ: التربية الخاطئة للغرب كيف يشوه الإعلام الغربي صورة الإسلام ت. حسن بستاني ط1، 2005 ، دار الساقي، بيروت لبنان.
3. حسن عزوزي: الإسلام والغرب قراءات معاصرة، ط1، مطبعة أميمة، فاس. 2012.
4. خلود العيدان: صورة المسلمين والعرب في العالم،https://www.islamtoday
5. رجب البنا: الأمية الدينية والحرب ضد الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997 .
6. سعيد اللاوندي: الاسلاموفوبيا لماذا يخاف العرب من الاسلام، دار النهضة مصر للطباعة و النشر 2006 د ت.
7. سليمان سالم صالح: وسائل الإعلام وإدارة الصراع العالمي، ط1، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، 2011.
8. سليمان صالح: وسائل الإعلام وصناعة الصور الذهنية، ط 1، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت.2005.
9. سماح صلاح: الجندر والإعلام في الشرق الأوسط، ورقة عمل مقدمة لمركز وسائل الاتصال الملائمة من أجل التنمية. www.women.jo.
10. علي خليل شقرة.
11. المبروك الشيباني المنصوري: صناعة الآخر المسلم في الفكر الغربي المعاصر من الاستشراف إلى الإسلاموفوبيا، ط1 مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت. 2014.
12. محمد الفال: التغطية الصحفية الأمريكية للمسلمين ,ط1, الرياض. 2002.
13. محمد عابد الجابري: الإسلام والغرب الأنا والآخر، ط1، سلسلة فكر ونقد، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2009.
14. محي الدين عبد الحليم: الإعلام عن الإسلام في غير ديار الإسلام، د ط، الهيئة المصرية لصناعة الكتاب، 2002.
15. يحي العريضي: من يحكم أمريكا فعلا السيطرة الخفية لليهود دراسة في الإعلام الغربي والأمريكي، ط1، دار الرشيد دمشق. 1999 .
16. تزداد صورة الإسلام والمسلمين تشويها وتحريفا في وسائل الإعلام الغربية في عصر تزداد فيه القوة التأثيرية لوسائل الإعلام وقدرتها على تشكيل الصور النمطية عن الأفراد والشعوب، باعتبارها المصدر الأساسي لاستقاء وتلقي المعلومات وتشكيل الصور عن المجتمعات الأخرى، فقد انشغل الإعلام الغربي بتناول كل ما يتعلق بالعالم الإسلامي وقضاياه وما يتعلق بالمسلمين والربط بينهم وبين العديد من الصور النمطية السلبية، والتي وإن انتشرت اليوم عبر وسائل الإعلام، فهذا لا ينفي وجود جذورا لها ضاربة في التاريخ وإن اختلفت العوامل والأدوات والأساليب، فالتاريخ يحفل بالعديد من مصادر الصور النمطية السلبية للإسلام والمسلمين منذ المواجهات الأولى بين الإسلام والغرب ولكن توظيف الوسائل الإعلامية جعل الصورة أكثر انتشارا وسلبية ما بات يستدعي ضرورة العمل على دراسة وتشخيص هذه الصورة والعمل على بحث مختلف السبل والأدوات والاستراتيجيات من أجل التغيير والتصحيح.

الهوامش:

1- إن الفيلسوف والكاتب الفرنسي فولتير، الذي ألف كتاب محمد أو التعصب، وصف فيه الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه خائن ومتمرد، مجرم ودجال ولم يكون أمة إلا من أجل الصلاة والتكاثر والقتال. نجده في كتابه التربية المسيحية للرجل الصادق قد كتب أن الاسلام أروع دين جاء من الإله ويدفع فكرة انتشار الإسلام بالسيف وفي كتابه الآداب العامة امتدح النبي صلى الله عليه وسلم باعتباره أحد المشرعين الثلاثة العظام في تاريخ العالم. أما الشاعر الألماني غوته 1749- 1832 فقد عرف عنه مدحه للإسلام وإعجابه بالثقافة العربية. قام بترجمة مسرحية فولتير القادحة والمسيئة لشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اللغة الألمانية وإقدامه على ترجمتها وتعريف الشعوب الجرمانية بمضامينها المتهكمة والساخرة بالإسلام ونبيه وحضارته كاف للقول بأن الرجل أسهم في تكريس الصورة النمطية وترسيخها في الأذهان... وتوماس كاريل 1795- 1880 المعروف بإشادته الرائعة بالرسول صلى الله عليه وسلم الذي وضعه على رأس لائحة الأبطال وكبار المصلحين الدينيين في كتابه البطولة وعبادة الأبطال هو القائل أيضا أن محمدا شيء والقرآن شيء آخر فالقرآن هو خليط طويل وممل ومشوش جاف وغليظ باختصار هو غباء لا يحتمل (محمد عزوزي: ص 279 281).

2- الآخرية بصفتها مقولة فلسفية تعني في بعدها الفلسفي الوجودي أن من ليس أنا فهو آخر بالنسبة إلي ولكن هذه الآخرية تتحول إلى صناعة عندما ترتبط أساسا بفن التمثل، ولا ترتكز على المعطى الموضوعي فتصير أنت آخر بالنسبة إلي وليست الآخرية صناعة استشراقية فقط بل هي صناعة أكاديمية وإعلامية أيضا... ويعضد الفعل الأكاديمي الإخراج الإعلامي الذي يعمل على تسويق صورة نمطية غايتها الأساسية هي خلق المباعدة بين الأنا والآخر في كل أوجه الحياة. المبروك الشيباني المنصوري: ص 13.